القصص

أديب

للدكتور طـــه حسين

— ١ —

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس . فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ، ولا يشعر بشيء إلا أعلنه . وهو اذا نظر في كتاب أو خرج للتروض أو تحدث الى الناس فأثار شيء من هذا في نفسه خاطرا من الخواطر . أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف . أو حث عقله على الروية والتفكير لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس . ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه وانما يحس للناس . وهو لا يشعر لنفسه وانما يشعر للناس . وهو لا يفكر لنفسه وانما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وانما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضلها أقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الاحساس والشعور والتفكير . وانما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي تنتجه طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية . فاذا كان متواضعاً معتدل الرأي في نفسه فهو شقي تعس محزون يجب أن يعلن الى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه . وربما لم ير في نفسه إيثاراً ولم يحس أنه شقي . وانما آثر نفسه بالخير وأحبها قليلا أو كثيرا فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع . وليستطيع العودة اليه من حين الى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية . وكثيرا ما تعرض له الفرص التي تحمله على أن يستعرض حياته الماضية . والذاكرة قصيرة ضعيفة . فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود إليه كلما دعاه الى ذلك جد الحياة أو هزلها . وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها الى أن يستعرض الانسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الاحداث .

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع . ويعللها بهذه الألوان من التعللات . وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب لا يستطيع أن يعيش الا اذا كتب . يكتب لأنه محتاج الى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج الى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم ، كما أنه حين يأكل ويشرب ويدخن قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ : انما هي حاجة تضطره الى الحركة فيتحرك . وتدفعه الى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الأيام حين تصبح أمرا مقضيا لا ينصرف عنه ، ولا سبيل الى التخلص منه .

اذا كان هذا كله صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح . فيجب أن يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث اليك عنه أديبا . فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت اليهم رجلا أضنته علة الأدب واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئا ولا يشعر بشيء ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئا ولا يسمع شيئاً الا فكر في الصورة الكلامية . أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في اخفاء تفكيره هذا على الناس . فكثيرا ما كان يقول لأصحابه اذا رأى شيئا أسخطه أو أرضاه : ما أخلق هذا الشيء أن يتخذ صورة أدبية تمتع للسخط أو الرضى . وكان يقضي نهاره في السعي والعمل والحديث حتى اذا انقضى النهار وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا الى نفسه أسرع الى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الاعياء . وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم . وتختلط الحروف أمام عينيه الزائغتين . ويأخذه دوار . فاذا القلم قد سقط من يده . واذا هو مضطر الى أن يأوي الى مضجعه ليستريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته . فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً . وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولا ومقالات . وخطبا ومحاضرات . ينمق هذه ويدبج تلك كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها . وكثيرا ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات

التي كانت تمليها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعا. وكثيراً ما كان يقرأ عليهم فصولا من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته وسجلتها يده حين كان يخلو الى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء. وبما يحسه من الناس ومن الحياة. وكان أصدقاؤه اذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه في أن يذيع ذلك وينشره. فيبتسم ثم يهزأ ثم يمتنع عليهم ويلح في الامتناع. لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد الى أن يكون خليقاً بأن يقدم الى المطبعة. فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويعطيها بشيء من التقديس غريب. وكان يتحدث بأن ما يقدم الى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء الى آلهتهم من الضحية والقربان. وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون الى إلههم من الصلاة والدعاء. فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان. وأن تكون الصلاة قطعة من النفس. وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعا. وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى. ولا قربان يختار. وانه لم يوفق بعد الى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله. فما زالت الآماد بينه وبين المطبعة بعيدة. ومازالت الأستار والسجف دونه مسدلة. فليكتب إذاً لنفسه لا للمطبعة. فاذا ضاق بنفسه وبما تملي. فليظهر أصدقاءه على شيء منه ليرضي هذه الحاجة القوية التي تدفعنا جميعا الى أن نشرك الناس فيما نحسه من حس أو شعور. والحق أن صاحبي لم يكن يقدم على هذا الا كارهاً مضطرا حين لا يجد بدا من الاقدام. أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم. وكان حياؤه يمنعه من اظهار عقله وقلبه. كما يمنعه من عرض جسمه عاريا على الناس. ولكن أصدقاءه لم يكونوا في حاجة الى أن يروا شخصه عاريا، وكانت حاجتهم شديدة الى أن يروا نفسه كما هي. لأنها كانت جميلة خلابة تروعهم حينا وتثير في نفوسهم الحب والمودة دائما.

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه. وكان الى القصر أقرب منه الى الطول. وكان على قصره عريضاً ضخم الأطراف مرتبكها. كأنما تآمرت على عجل فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص. ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد. وكان وجهه جهما غليظا يخيل الى من رآه أن في خديه ورما فاحشا. وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة، منبطح غال في الانبطاح. قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره القزير الجعد القاصر. لم تكن قد تقدمت به السن بل لم يكن جاوز الثلاثين، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد. كان على قصره مقوس الظهر اذا قام، منحنيا اذا جلس، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة. وإسرافه في الانحناء على الكتاب أو القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه. وقلما كان وجهه يستقيم أمامه. إنما كان منحرف العنق دائما الى اليمين أو الى الشمال؛ وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة. إنما كانتا مضطربتين دائما لا تكادان تستقران على شيء. حتى تمتدا مصعدتين في السماء، أو تنحرفا عنه الى ما يليه من إحدى نواحيه ولم يكن صوته عذباً ولا مقبولا. وإنما كان غليظاً جافاً، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجري عليه اذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال. وكان له ضحك غليظ عنيف يسمع من بعيد، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً عنيفاً. يسمع من بعيد، ولم يكن للتجوي معه سبيل. وكثيراً ما ضايقه ذلك حين كان في باريس. وكثيراً ما حمل ذلك الناس عامة وأصدقاءه خاصة على أن يضيقوا به ويجتنبوه اذا لقوه في قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل. وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس الي وأكرمهم علي وآثرهم عندي وأحسنهم مسلكا الى نفسي ومنزلا من قلبي. كان يزورني فانصرف اليه عن كل شيء، وأقضي معه الساعات، فاذا تركني خيل الي أني لم أقض معه الا اللحظات القصار. وكنت اذا أعياني الدرس واحتجت الى الرياضة أو الراحة. آثرت زيارته والتحدث اليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم الى القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة.

— ٢ —

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب الى باريس ثم أدركته الى باريس بعد أن سبقني اليها. عرفته مصادفة وكرهته كرهاً شديداً حين لقيته لأول مرة: كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها وكنت أختلف الى ما كان يلقى فيها من المحاضرات حريصاً عليها مشغوفاً بها ممتزماً أن لا أضيع حرفا مما يقول المحاضرون. وكان مجلسي لهذا دائماً قريبا من الأستاذ. فأني لمصغ ذات ليلة الى الأستاذ واذا صوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئاً ولكنه. على هدوئه يغمر أذني جميعا، ويكاد يخفى على صوت الاستاذ. فأجد في التخلص منه فلا أفلح، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباي اللذان يكتنفانني. فنلتفت الى صاحب الصوت نطلب اليه الصمت فلا يسكت الا ريثما يستأنف الحديث، ونراجعه مرة أخرى فلا يحفل بنا. فنشكوه الى الاستاذ فيضطره الاستاذ الى الصمت. حتى اذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا: فيعرض لنا في غلظة، فاذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الاستاذ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه تهقه

تهتهة مخيفة . وقال في صوت ماشك أن الاستاذ قد سمعه : «وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون . جئتم من الأزهر فكل شيء عندكم قيم . وكل شيء عندكم جديد .»

واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات . وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتي أو قفطاني وهو يسألني «أأعجبتك المحاضرة ؟» فان قلت «نعم» قال : وماذا أعجبك منها ؟ وهل فهمتها على وجهها ؟ وكان يقول لي : هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ، ولا تتهالك عليها هذا التهالك ، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع . فلما ألح على في ذلك سألته واذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك الى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات وما تهويشك علينا بصوتك العالي وحديثك التي لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شيء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن في الجامعة الا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافيا لأن اختلف الى الجامعة واستمع للمحاضرات . ثم سألني ذات يوم : أين تقيم ؟ أجبته : أقيم في حي كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في المدارس المدنية . قال : ان منزلك بعيد وليست بيتك بالتي تحب ، فانا لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك وأتحدث اليك فأطيل الحديث ، بل أنا حريص على أن أقرأ معك بعض الكتب ، فلا بد اذا من أن نلتقي ، ومن أن نلتقي في نظام واطراد فليكن ذلك عندي ، ولك علي أن أردك الى أهلك وأصدقائك قبل أن يتقدم الليل ، ودون أن تجد في ذلك مشقة أو تحتمل فيه عناء . وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن أمره مطاع . وقد همت أن أرد عليه معتذراً . وما كان أكثر المعاذير ! فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف الى أحد دون اذن من أخي ، وكان علي أن أغدو مع الفجر الى درس الأصول ، ولم يكن بد من أن أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الازهر ، وأن أعوض هذا الوقت الذي أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخي في القاهرة وأسرتي في الريف . هممت أن أعتذر ولكنه لم يمهلني ولم يتح لي أن أقول حرفا ، وانما استوقف عربة ودفعني فيها دفعا وأمر خادمي الأسود الصغير أن يجلس الى جانب السائق ، وجلس هو الى جانبي وقال للسائق بصوته الغليظ العريض : الى القلعة . وكنت أسكن في أقصى الجمالية . فلما أخذت أقدر بعد الامدين داره وداري ، وهممت أن أتكلم وضع يده على كتفي وقال : ألم أقل لك اني سأردك الى حيث تقيم ؟!

— ٣ —

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة . ومضت بنا في أجواء متباينة وكنت أحس اختلاف الأحياء وتباين الاجواء فيما يصل الي من أصوات الناس وحركاتهم . ومن اضطراب الأشياء من حولنا كما كنت أحس ذلك في سير العربة نفسها وفي لهجة السائق وهو يدفع الناس امامه ويطلب اليهم أن يتنحوا له عن الطريق ، أو أن يجنبوا أنفسهم خيله وعربته .

كان الحي رشيقا أنيقا ، وكان الجو معطراً طلقاً ، وكانت الحركات والأصوات من حولي لا تخلو من شدة وعنف . ولكن فيها ظرفاً وتأنقا . حتى إذا بلغنا شارع محمد علي ضاقت الطريق واشتد أمامنا الزحام وكثر من حولنا الصياح . وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط بأصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل ، وانتشرت في الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار . وارتفع صوت السائق واتصل . وكثر نذيره ، وتحذيره وكثر من حوله لوم الناس له وتأنيبهم اياه ، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذي يحدثه السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التي يروعون بها الخيل . ويخيفون بها المارة ، ثم تفسح الطريق وتتسع ، ويصفو الجو ، ويخف الهواء ، وتهدأ الحركة ، ويتنفس السائق مطمئنا ، وتمشي الخيل رفيقة ، ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربة ذات اليمين واذا نحن في حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت في أرضها الأخاديد فالعربة تقفز بنا قفزا والسائق يهز سوطه في الهواء ويحذر وينذر في هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ الى أن تفتح ، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم يهتفون بالسائق ، ومنهم من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ، ونحن نضحك من هذا كله ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت وراءه ويضرب الهواء بسوطه ويطلق لسانه بألفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل الى الشتم القبيح ، وكل ذلك يصل الى نفسي فيحدث فيها آثاراً مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة لأني لم أكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة وننزل من العربة ، واذا صاحبي يقول لي لم نبلغ البيت بعد ، ولكننا انتهينا الى حيث لا تستطيع العربة أن تمضي ، فهل تعودت التصعيد والرقي في الجبل ، فانا لا أحب أن أسكن في السهل

(البقية على صفحة ٣٨)